﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سِيقَتْ هذه الآيةُ لبيانِ تَوالي عِنادِ بني إسرائيلَ وحِيَلِهِم، وأنّهم مع الهَوَى لا يُفارِقونه في مُحاجّةٍ جَديدَةٍ وغَرَضٍ جديدٍ؛ فقد أخذَ اللّه تعالى ميثاقَهم وخوَّفَهم بجَبَلِ الطُّورِ، وأمرَهم بأنْ يأخذُوا ما في التَّوراةِ بقُوّةٍ وجِدٍّ، فكان ردُّهُم وجوابُهم أن قالوا: سَمِعنا وعَصَينا؛ فقد جاءتِ الآيةُ ردّا على الّذين لم يُؤمِنُوا بالنَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ في زَمَنِ نزولِ القُرآنِ حيث أقامَ دليلًا آخَرَ على إبطالِ دَعوى إيمانِهِم بالتَّوراةِ التي أنزِلَتْ إليهِم، ودَعوى أنّ اللّه لا يُطالِبُهُم بالإيمانِ بغيرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: أصل الكلمة (وَثِقَ)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَامٍ. ومنه: وَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وعقدٌ وثيقٌ أي: مُحكَم، والوِثاقُ: ما يُشدُّ به الحَبلُ وغيرُه، ثمّ استعملَ المِيثاقُ بمَعنَى: العَهْدِ المُحْكَمِ، أو العقد المؤكّد بيمينٍ وعَهدٍ، وهو المراد في الآية[1].

2) ﴿ٱلطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مَخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلّ جبلٍ، ثمّ تَخصَّصَ بدليلِ تَخَصّصِهِ بالإضافةِ في قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2]، وقوله ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]. وعلى هذا القولِ تكونُ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ للعهد العلمي[2].

3) ﴿بِقُوَّةٖ﴾: القُوَّةُ: نقيضُ الضَّعفِ، وتُستعملُ في معنى القدرةِ، فتكونُ في البدنِ نحو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والمعجم الوسيط: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (طور).

قوله: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، وفي القلبِ نحو ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: 12]؛ أي: بقوّةِ قلبٍ، وفي القدرةِ الإلهيَّةِ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: 21]، والقوّةُ في الآية بمَعنَى: بِجدٍّ وبعَزمٍ على أداءِ ما افترضَه اللّٰه عليكم[1].

4) ﴿وَٱسۡمَعُواْۚ﴾: أصلُهُ (سَمِعَ)، وهو قوّةٌ في الأذنِ بها تُدركُ الأصواتُ، وَسَمِعَ يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِدُونِهِ، واسْتَمَعَ لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالإِصْغَاءِ، وَسَمِعْتُ كَلَامَهُ؛ أَيْ: فَهِمْتُ مَعْنَى لَفْظِهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْهُ لِبُعْدٍ أَوْ لَغَطٍ فَهُوَ سَمَاعُ صَوْتٍ لَا سَمَاعُ كَلَامٍ، ولا يدلُّ السَّمعُ على الطّاعةِ إلّا في مَقامِ طلبِ الامتثالِ، كقولنا: اسمَعْ كلامي، فالسَّمعُ هنا بمَعنَى طَلَبِ الامتثالِ والطّاعة[2].

5) ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾: أصله شَرِبَ يَشْرَبُ شَرْباً وشُرْباً، والشُّرْبُ: تناولُ كلّ مائعٍ، ماءً كان أو غيره، والإشْرابُ: مُخَالَطَةُ المَائِعِ الجَامِدَ، وَتُوُسِّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ فِي مخالطَةِ لونٍ بلَونٍ، يقال: لَوْنٌ أُشْرِبَ بلَونٍ؛ أي: خُلِطَ. كأَنَّ أَحد اللَّوْنَين سُقِيَ اللَّونَ الآخَرَ؛ يُقَالُ: بياضٌ مُشْرَبٌ حُمْرةً مُخَفَّفًا. وإذا شُدّد كَانَ لِلتَّكْثِيرِ وَالمُبَالَغَةِ، وأُشْرِبَ فُلَانٌ حُبَّ شيءٍ؛ أَي: خالَطَ قَلْبَه. وأُشْرِبَ قلبُه مَحَبَّةَ هَذَا؛ أَي: حَلَّ مَحَلَّ الشَّرابِ؛ كأَنَّ الشَّيءَ المَحبوبَ شَرابٌ يَسْري في قَلبِ المُحبِّ ويُخالِطُه؛ كما يسري الشّرابُ العَذبُ الباردُ في اللَّهاة[3].

6) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصلُ الكلمةِ من البُؤْسِ وهو الشِّدّةُ، مَنْقُولٌ مَنْ بَئِسَ فُلَانٌ إذا أَصاب بؤْسًا، فتكون بمعنى: شِدَّةِ الحربِ وشِدَّةِ العذابِ، والبؤسُ شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ بمعنى لا شِدَّةَ عليكَ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي لَا خَوْفَ، وبِئْسَ: كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذامّ ومُستوفيةٌ لَها[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يذكرُ اللّٰه في هذهِ الآيةِ تَوالي نِعَمِ اللّٰهِ على اليَهودِ وإمهالَهُ لَهُم، والخطابُ لليَهودِ في زَمَنِ نزولِ القرآنِ، وذَكَرَ أَفعالَ أَسلافِهم ونَسَبها إليهم لأَنَّهم رَاضونَ بها، سائرونَ

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/43، والزجاج، معاني القرآن: 1/148، والرّاغب، المفردات، والسمين، الدر المصون: (قوي).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والمعجم الوسيط: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بؤس).

على طريقِهم في الكُفرِ والعِنادِ والتّكذيبِ، وَإِذْ أَخَذْنا ميثاقَكُمْ بالعَمَلِ على ما في التَّوراةِ، وأعلينا فوق رؤوسكم الطورَ وجعلناه كالمِظَلَّةِ تَرهيبًا لكم حتَّى قَبِلتُم وأَعطيتُم الميثاقَ، خُذوا ما آتَيْناكُمْ مِن الكتابِ بِقُوَّةٍ بجدٍّ وعَزيمةٍ والتَزِمُوا ما فيهِ واسمعوه سَماعَ طاعةٍ، لكنَّهم قالوا سَمِعْنا قولَك وعَصَيْنا أوامرَك، فَخالفُوا في سَماعِهم وعَصَوا، مُبالغةً في التَّعَنُّتِ والعِصيانِ، فقدْ خالطَ قلبَهم حُبُّ عبادةِ العجلِ الذي اتَّخذوه إلهًا بسببِ كفرِهم، إذْ كانوا يُؤمنونَ ببعضِ الكتابِ ويكفرونَ ببعضٍ، فَكذَّبَهم اللهُ فيما ادّعوه بأنَّهم يُؤمنونَ بما أُنْزِلَ إليهم، فأمَرَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ، أو مَنْ يُجادلُهُم أنْ يَقولَ لَهم على طريقةِ عُمومِ الذَّمِّ: بِئْسَ الشَّيءُ الذي يَأْمُرُكُم بِهِ إيمانُكُم -الذي تَزعمونَهُ مِنْ أنَّكُم تُؤمنونَ بِما أُنزِلَ إليكُم- تَكذيبُ الأنبياءِ وقتلُهم واتِّخاذُكُم العجلَ إلهًا لَكُم إنْ كنتُم مُؤمنينَ؛ فَنَفَى إيمانَهم بالتَّوراةِ؛ لأنَّ دعوى إيمانِهم باطِلَةٌ، فَأفعالُهم تُناقضُ ما في التَّوراةِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغَةُ الوَصلِ:

بيانُ تواصلِ الحِجاجِ في إقامةِ الأدلَّةِ على مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليهم

جاءت هذه الآيةُ على طَريقةِ الوَصلِ؛ وذلك لإظهارِ مناسبةِ ما قبلَها مِنَ الآياتِ مِنْ تذكيرِ اليَهودِ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ بما حَصلَ معَ أَسلافِهم، فتكونُ معطوفةً على ما تقدَّمَها مِنَ الآياتِ الّتي ذكرتْ قبائِحَ أفعالِ اليَهودِ وأقوالِهم، معَ طريقةٍ جديدةٍ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، فتكونُ معطوفةً في الأصلِ على قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]؛ أي: اذْكُروا نعمتي واذْكُروا إذْ أَخَذْنا ميثاقَكُم ورفعْنا فوقَكم الطُّورَ، لكنْ هذه الآيةُ سِيقَتْ مَساقًا جَديدًا في الاحْتجاجِ والاسْتدلالِ على بُطلانِ دَعوَى إيمانِ أَسلافِهم؛ لِيعلموا أَنَّ ما يَدَّعونَه مِنْ إيمانِهم بما أُنزِلَ عليهم باطلٌ كذلكَ.

أَغراضُ التَّكرارِ في القرآنِ:

تكرارُ الأغراضِ ليس تكرارًا للآياتِ نظمًا ومعنًى محضًا

هذه الآيةُ ليستْ تكرارًا لقولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، وإنَّما هي تكرارٌ لأغراضٍ سبقَ التَّنبيهُ عليها، وتكرارُ هذه الآيةِ عن الأولى لِمَا نيطَ بِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ مَعْنًى فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وللتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ طَرِيقَتَهُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرِيقَةُ أَسْلَافِهِمْ مَعَ مُوسَى، وَهَذَا إِلْزَامٌ لَهُمْ بِعَمَلِ أَسْلَافِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الفَرْعَ يَتْبَعُ أَصْلَهُ، وَالوَلَدَ نُسْخَةٌ مِنْ أَبِيهِ، وَهُوَ احْتِجَاجٌ خِطَابِيٌّ[1].

فائدةُ إيرادِ (إذ) مبدأَ الكلامِ:

التَّنبيهُ على أمرٍ غابرٍ للاتِّعاظِ منه في أمرٍ حاضِر

يغلبُ إيرادُ (إذ) عندَ الكلامِ على أَمرٍ له شَأنٌ، كأنْ يكونَ ميثاقًا مؤكَّدًا، أَو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ، أَو ارتكابَ ذَنبٍ عظيمٍ؛ فيفيدُ إيرادُها التّنبيهَ على أَمرٍ عظيمٍ وقعَ في زمنٍ ماضٍ، يَستحقُّ أَنْ يكونَ ما بعدَها مَثَلًا للذِّكرى والتّدبُّرِ والعِظَةِ، وقدِ اجْتمعَ في هذهِ الآيةِ التَّذكيرُ بالميثاقِ، ورفعِ الطُّورِ، وموقفِ اليَهودِ من أَمرِهم بالاتِّباعِ، والتَّنبيهِ على سَببِ العِصيانِ، وهو إشرابُهم حُبَّ العِجلِ في قلوبِهم بسببِ كُفرِهم ابتداءً.

بلاغةُ الإفرادِ فيما ظاهرُه الجَمعُ:

إلحاقُ الفُروعِ بأصلٍ واحدٍ، لتوقُّفِ اعتبارِها على اعتبارِه

جاء التَّعبيرُ عنِ الميثاقِ بالمُفرَدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، ولم يقل: (مواثيقكم)، مع أنَّ المَذكُورَ هو مَواثيقُ لا ميثاقٌ واحد؟! وتعليلُ ذلكَ أنَّ العهودَ التي أُخِذت عليهم مَردُّها إلى ميثاقٍ غليظٍ واحدٍ، وهو ميثاقُ العقيدةِ والتَّوحيد، فَمَنْ أَخلَّ به فقدْ أَخلَّ بالجَميعِ؛ فكانَ التَّنبيهُ عليه بالإفرادِ لبيانِ أنَّه المقصودُ أصالةً وغيرُه بالتَّبَعِ، فألحقَ الفُروعَ بأصلٍ واحدٍ لتأخذَ حكمَه؛ ولذلكَ كان التَّنبيهُ على علَّة الكفر في غالبِ الكلامِ، من مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾، هو المقصودَ في الكلامِ المُنبَّه عليه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/609.

بلاغةُ تقديمِ الظَّرفِ:

التَّخويفُ والتَّرهيبُ للحَثِّ على الامتِثالِ

قُدِّم ظرفُ المكانِ ﴿فَوْقَكُمُ﴾ على ﴿ٱلطُّورَ﴾ لِبيانِ الاهتمامِ والعنايةِ بِكونِ الجَبلِ فوقَهم؛ فهذا أَدعى للتَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ لِحثِّهم على الامتثالِ والطَّاعةِ، وهُمُ المعروفونَ بالتَّولّي والإعراضِ، وما يُعطيهِ تقديمُ الظَّرفِ من استحضارِ صورةِ الجبلِ وهو فوقَهُم.

جمالُ الإيجاز بالحذفِ:

الحثُّ على المبادَرَةِ بالمُباغَتَةِ

أَوجز النَّظمُ الكلامَ بحذفِ القول، والتقديرُ: (قلْنا لَهم خُذُوا ما آتينَاكُم بِقوّة)؛ فحذَفَ ليَستَمِرَّ سياقُ الكلامِ بصيغةِ الخِطابِ المُفيدِ طلبَ المبادرةِ إلى الامتثالِ؛ لِمَا في مُخاطبةِ اللّهِ لهم مِنَ الرَّهبةِ المقرونةِ بوجُوبِ استحيائِهم مِنَ اللّهِ تعالى، وأَنْ لا يُعرِضُوا عن الامتثالِ، ولِمَا في ذلكَ من تحَقُّقِ عُنْصرِ المفاجأةِ في الخِطابِ، وبيانِ أَنَّهُ المقصودُ بالدَّرَجةِ الأولى للمُخاطَبين.

إيجازُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾:

الأمرُ بالامتثالِ بكلمةٍ تَجمعُ بين طَلَبِ الإصغاءِ والفَهمِ، وطَلَبِ الامتثالِ والطَّاعةِ

التَّعبيرُ بـ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾: إمَّا أَنْ يكونَ كِنايةً عن الامتثالِ، وتَحْصيلًا للمأمورِ، وهوَ أَوقعُ بَيانًا مِنَ الإفصاحِ بِذكرِهِ؛ فَيتحقَّقُ الملزومُ وهو طلبُ الإصغاءِ، ولازمُهُ وهو طلبُ الامتثالِ بكلمةٍ واحدةٍ، أو هو مَجازٌ مُرسَلٌ بإطلاقِ السَّببِ وإرادةِ المُسَبّبِ؛ فذَكَرَ فعلَ الطَّلبِ (اسْمَعُوا) وأَرادَ ما يَترَتَّبُ على الإصغاءِ مِنَ الامتثالِ والطَّاعةِ، والقرينةُ الطَّلبُ من الأَعلى إلى الأَدنى، ومآلُه تَحقُّقُ المَلزومِ واللازمِ بكلمةٍ واحدةٍ كذلكَ، والقومُ قد أُمروا بالطَّاعةِ، فغالَطُوا في ذلك، وحَملُوا الأَمرَ بالسَّماعِ على ظاهرِهِ الذي لا يفهمُهُ على ظاهرِه إلَّا أَصحابُ السَّماجةِ، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373.

تردُّدُ المعنى بين التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تـأكيـدُ الـعـامِّ بأخصِّ ما فيه يُشابِه معنى التَّأسيسِ

يحتملُ قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، بأنْ يكونَ الأخذُ بقوَّةٍ شاملًا لطلبِ الامتثالِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أكَّدَ ذلك، وتكونُ نكتةُ التَّأكيدِ هي الإشعارَ بأنَّهم مَظِنَّةُ إهْمَالِ الميثاقِ وَالإخْلَالِ ببنودِه؛ ولهذا كانَ الميثاقُ عَهدًا مُوثّقًا لأنّهم في طبعِهم لا يَمتثلونَ بغيرِ مؤكِّداتٍ لِمَا يُطلَبُ مِنْهم.

ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ تأسيسًا لإيرادِ معنًى جديدٍ؛ بحملِ قولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ على معنى: تلقَّوا تعاليمَ التَّوراة بجِدٍ وعَزمٍ واهتمامٍ، فيكونُ معنى قولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾: أَصْغُوا إلى هذهِ التَّعاليمِ وتدبّروها وامْتَثِلُوها، "والظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ لَا يَشْمَل الِامْتِثَالَ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ دَالًّا عَلَى مَعْنًى جَدِيدٍ وَلَيْسَ تَأْكِيدًا"[1].

وقاعدةُ "التَّأسيسِ أولى من التَّأكيدِ" أصلٌ في فهمِ الكلامِ القرآنيِّ، إلَّا أنَّها غيرُ مطَّردةٍ؛ فالتَّأكيدُ هنا أظهرُ، إذ مقصودُه تأكيدُ ما اعتادَ بنو إسرائيلَ على نسيانِه؛ فهم بحاجةٍ إلى مُؤكِّداتٍ من الكلامِ كي يَمتثِلوا، فأكَّدَ لهم بأكثرِ شَيْءٍ يَنفلِتون منه وهو الامتثالُ، فهو من قَبيلِ تأكيدِ العامِّ بأخصِّ ما فيه؛ فيُشابِه معنى التَّأسيسِ، ونكتتُه عند ابنِ عاشور: "الإشْعَارِ بِأَنَّهُمْ مَظِنَّةُ الإهْمَالِ والإخْلَالِ حَتَّى أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ قَبْلَ تَبَيُّنِ عَدَمِ امْتِثَالِهِمْ فِيمَا يَأْتِي"[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

جاءَ الأمرُ بالسَّماعِ في هذه الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾، بينما أمرَهم بذكرِ ما فيه في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، والفرقُ بينهما أنَّ الآيةَ المتقدِّمةَ جاءَتْ في مساقِ التَّذكيرِ بإنعامِ اللهِ على بني إسرائيلَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.

وبيانِ آلاءِ اللهِ عليهم؛ لهذا قالَ في فاصِلَتِها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقالَ في الآيةِ التي بعدَها: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فذَكَرَ فضلَهُ تعالى عليهم ورحمتَهُ، فكان المناسبَ أنْ يذكِّرَهُم بحفظِ ما في الكتابِ وتعاهدِه وأنْ لا ينسَوه، بَيْنما هذه الآية فيها بيانُ أقوالِهم القبيحةِ، وأفعالِهم الشَّنيعةِ التي استحقّوا بها الكفرَ، وإقامةُ الحُجَّةِ على كفرِهم في أقوالِهم وأفعالِهم، فناسبَ أنْ يقولَ: ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾؛ ليَصِلَ إلى عنادِهم بقولِهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

نكتةُ الالتفاتِ من الخِطابِ إلى الغَيْبةِ:

نسبةُ القولِ إلى قائلِه، دون تجوُّزٍ في الكلامِ

وقعَ التفاتٌ في الخِطابِ في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولم يقل: قُلْتُم سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)، ونكتتُه: نِسبةُ القولِ إلى أَصحابِه على الحَقيقةِ دونَ تَجوُّزٍ في الكلامِ؛ فإنَّ هذا الكلامَ صَدَرَ عن المتقدِّمينَ، فنُسِبَ إليهم، واستمالةُ المُخاطَبين بإبعادِهم عن مثلِ هذا القولِ؛ تنشيطًا لقلُوبِهم، وتَحريكًا لمَشاعرِهم.

براعةُ الاستعارةِ القرآنيَّةِ:

بيانُ شدَّةِ تغلغلِ حُبِّ عِبادةِ العِجلِ في القلوبِ وأثرِه الخرافيِّ في الضَّلالِ

في قولِه تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ استعارةٌ بديعةٌ؛ فالعِجلُ لا يُشرَب، لكنَّ الآيةَ شبَّهت شدَّةَ تَغلغُلِ حُبِّ العجلِ في قلوبِهم بالشَّيْءِ الذي يُشرَب، فشبَّهَت تداخُلَ حُبِّهِمْ عبادةَ العجلِ في قلوبِهم بإشرابِ الصَبْغِ الثَّوبَ في شِدَّةِ الامتزاجِ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ بهِ واستعارَ ما يدلُّ على الامتزاجِ في المشبَّهِ بهِ، وهو كلمةُ ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾؛ للدّلالة على أَنَّهُ حَلَّ مَحَلَّ الشَّرَابِ وَمَازَجَهُ، و"من عادةِ العربِ أَنَهم إذا أَرادوا العِبارةَ عنْ مُخامرةِ حُبٍّ أَو بُغضٍ في القلبِ أَنْ يستعيرُوا لَها اسمَ الشَّرابِ"[1]، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حُبِّ العِجْلِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/262.

بالشُّرْبِ دُونَ الأَكْلِ، لِأَنَّ شُرْبَ المَاءِ يَتَغَلْغَلُ فِي الأَعْضَاءِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى بَاطِنِهَا، وَأَمَّا الطَّعَامُ فلا يَتغلغلُ فِيهَا كتَغَلْغُلِ الماءِ، وهو يَرمي بحظٍّ وافرٍ لفهمِ شخصيَّةِ بني إِسْرائيل، وأثر ذلك في ثقافتِهم، وتعاملِهم مع الآخرين.

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

بيانُ استحكامِ حُبِّ عبادةِ العِجلِ على قُلُوبِهم

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ إلى العِجلِ فصارَ: وأُشْرِبُوا في قلوبِهم حُبَّ عِبادةِ العجلِ؛ فَحَذفَ "حُبَّ عبادةِ"، وأَقامَ العجلَ مقامَ المضافِ، مُبالغةً في بيانِ استحكامِ العِجلِ في قلوبِهم؛ كَأَنَّهم أُشْرِبُوه بذاتِه، "ويَجِبُ أَنْ يُعلَمَ أَنَّهُ لو قيلَ: حُبُّ العجلِ، لم يكنْ له منَ المبالغةِ ما لَهُ بحذفِهِ؛ لِأَنَّ فيه تنبيهًا أنَّ لِفَرطِ شَغفِهِم به ثَبَتَت صورةُ العجلِ في قلوبِهم راسخةً، وإِنْ زالَتْ ذاتُه الجِسْميَّة،"[1]، وإِنَّما كانَ التقديرُ (بِحُبِّ عبادةِ) لِقرينةِ (في قلوبِهم)؛ لِأَنَّ الإشرابَ لا يَختصُّ بالقلبِ؛ فلمّا ذكرَ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ دلّ على أنّ المَحذوفَ هُوَ "حُبُّ عبادةِ".

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المَبنيّ للمفعولِ:

بيانُ أثرِ الخُرافةِ في الاستيلاءِ على العُقولِ وإذهابِ مائها

جاء النَّظمُ بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لبيانِ أَنَّهم فَقَدُوا عقولَهم بعبادتِهم العجلَ؛ لمنافاتِها العَقْلَ؛ فكأنَّ غيرَهم أَشْرَبَهُم عبادتَه بإرغامٍ وقهرٍ وإجبارٍ، فأفادتْ صيغةُ المبنيِّ للمفعولِ الإشعارَ بأنَّ حُبَّهُمُ العِجْلَ صارَ كأنَّه لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ فِيهِ؛ كَأَنَّ غَيْرَهُمْ أَشْرَبَهُمْ إِيَّاهُ؛ كَقَوْلِهِمْ: أُولِعَ بِكَذَا وَشُغِفَ[2].

نكتةُ ذكرِ مكانِ الإشرابِ:

بيانُ رُسوخِ حُبِّ العجلِ، وأثرِهِ في الإغراقِ في الضَّلالةِ والغَضبِ

أَسْنَدَ النَّظمُ الإِشْرَابَ إِلَى ضَمِيرِ ذَوَاتِهِمْ ثُمَّ ذكر مكانَه بِقَوْلِهِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ مُبَالَغَةً، ولم يقلْ: (وأُشْرِبَتْ قلوبُهُمُ العجلَ)، بل أسندَ الضَّميرَ إلى الذَّواتِ مبالغةً في حصولِ إشرابِ الحُبِّ في الذَّاتِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/263.

(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.

كلِّها، ثمَّ بيّنَ مكانَه المعروفَ وهو القلبُ، فقَوْلُهُ: فِي قُلُوبِهِمُ بَيَانٌ لمكانِ الإشرابِ[1]، ونكتتُه: بيانُ أنَّ حبَّ العجلِ متمكِّنٌ في القلوبِ، راسخٌ في الأفئدةِ، فبقدرِ رُسوخِه يجبُ أَنْ يعملَ بنو إسرائيلَ على التَّخلُّصِ منه، وفيه تنبيهٌ للمسلمينَ بأنَّ دعوةَ اليهودِ ليستْ كدعوةِ غيرِهم.

مَعنَى (البَاءِ) في قولِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾:

التَّنبيهُ على سببِ الوقوعِ في الضَّلالةِ؛ للحَذَرِ والانتِباهِ

الظاهرُ أنّ (الباءَ) سببيَّةٌ والمَعنَى: تَعَلّقوا بالعجلِ وأَحَبُّوه واستحسَنُوا فعلَهُم بسببِ اعتقادِهم أُلوهيَّتَه، وأَنَّهُ ينفعُهُم ويضرُّهُم، فلمّا استحكمَ اعتقادُهم بأُلوهيَّةِ العجلِ تعلَّقوا بهِ حُبًّا وشَغَفًا، فكانَ اعتقادُهُم أُلوهيَّةَ العِجلِ أَصْلًا في حُبِّهم وتعلُّقِهم بعبادةِ العجلِ، وتحتملُ أَنْ تكونَ (الباءَ) بمعنى "مع"؛ فيكونُ المرادُ فَعَلوا ما فَعَلُوا من عبادة العجل مع كُفرِهم؛ أي: كان أمرُهم كُفرًا على كفر[2]، وحملُها على السَّببيَّة هو الأوفقُ بالسِّياقِ، وهو ما يقتضيه الظَّاهرُ، وهو ما يلتَئِمُ معَ دقَّةِ القرآنِ في اختيارِ الحرفِ الأنسبِ في نظمِهِ؛ إذِ القولُ بالتَّناوبِ قولٌ نائبٌ لا أَصيلٌ.

بلاغةُ الفصْلِ:

البيانُ والتَّقريرُ للمعاني المتآخيةِ، والدّلالاتِ المُتراخِيةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مفصولًا؛ لوقوعِه موقعَ البيانِ والإيضاحِ والتَّقريرِ لقولِه تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، فهو تعليمٌ وإرشادٌ لِمَا يجبُ أَنْ يُقالَ للمراوغين، مِمَّنْ يرفعونَ لواءَ الشَّريعةِ واتِّباعِ الأنبياء، وهم عنها غافلونَ، وفيه تنبيهٌ على شدَّةِ التصاقِ الآياتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ بعضَها آخذٌ بعُرى بعضٍ.

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 3/604.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/495، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/612.

أثرُ السِّياقِ في بيانِ مَعنَى التَّهكُّمِ:

التَّهكُّمُ مقصودٌ بالتَّبعِ لا بالأصالةِ، وهو مأخوذٌ من ادِّعاء المُخاطَبين للرَّدِّ عليهم

أفادَت إضافةُ الإيمانِ للمُخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ معنى التَّهكُّم، فإيمانُهم ليس إيمانًا مقبولًا بدليلِ: ﴿بِئْسَمَا﴾، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لكنَّه أتى به لا على قصْدِ التَّهكُّم ابتداءً، بل على قصْدِ الرَّدِّ عليهم فيما يَزعُمُون، فيكون التَّهكُّمُ تابعًا للرَّدِّ، وهذا من بديعِ استعمالِ غَرَضِ التَّهكُّم في الخِطابِ؛ فالتَّهكُّمُ أمرٌ يُفهم من السِّياق.

بلاغة المَجازِ:

أوصافُ الإنسانِ هي الدَّاعيةُ إلى الخَيرِ أو الشَّرِّ

أُسنِد الأمرُ إلى الإيمانِ في قولِه: ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾، والإيمانُ لا يأمرُ ولا يَنهَى، فإسنادُه إليه إسنادٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ، وبلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ في هذا السِّياقِ ظاهرةٌ في كونِ الإيمانِ هو المُحرِّكَ للأفعالِ على الحقيقةِ، وأنَّ جميعَ ما يصدُرُ عن الإنسانِ هو بسببِ إيمانِه؛ فأقامَ وصفَ الإيمانِ مقامَ الآمرِ؛ لتغلُّبِ إيمانِهم الباطل على عقولِهم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»